

هاملت . . في المسرح التجارى وتلك هى المشكلة

إن تراث « الدراما الشيكسبيرية » برغم ما بلغته الدراسة من تعدد وتنوع ، ما زال منفصلاً عن وجداننا الحاضر ، وما زلنا محرومين من أن نعيشه ونعايشه ونتحده به فى حركتنا المسرحية ، فهو جزء فحسب من مناهج الدراسة المعهدة أو الأكاديمية ، دون أن يكون وقوداً حياً فى معركتنا الفنية الراهنة . من أجل « تأصيل » الدراما فى أرض خلت من كل سابقة لهذا الفن المجيد .

ومن أجل « تعصيرها » كذلك ، وعياً بينايعمها العميقة ، وإحاطة بتراتها العريق ، واستمراراً بها فى فنوننا الحاضرة ، على ضوء خبراتنا الإنسانية والوطنية الجديدة .

وما أكثر المحاولات التى بذلت عن سوء فهم أو عن سوء نية أو عنها معاً ، لكى تحول بيننا وبين هذا التراث ، إما بتشكيكنا فى قدرتنا على تمتعه واستيعابه وطرحه على جمهورنا العريض ، أو بحرماننا من ثمرة الجهود التى تبذل لتطويره وتعصيره ، والنظر إليه من أكثر من زاوية ، وعلى أكثر من مستوى .

(فالمسرحيات الشيكسبيرية) لم تعد أسيرة جمهور بعينه ، هو جمهور المثقفين ، بل تحررت من هذا الأسر لتنتقل على شاشات السينما . وعدسات التلفزيون .

وخيوط فن العرائس ، فضلا عن فنون الأوبرا والباليه ، لتنتقل عبر هذا كله إلى المساحات العريضة من الجمهور العام . انطلاقاً من أن « شيكبير » ليس شاعر عصره ، بل هو شاعر لكل العصور ، وليس مؤلفاً له جمهوره ، بل هو مؤلف لكل الجمهور .

وهذه الفرقة . . « فرقة استوديو الفن » إذ تقدم على هذه المبادرة الشجاعة ، بتقديم رائعة شيكبير . . « هاملت » . . فوق مسرح كثيراً ما وصفناه بالمسرح التجارى . ولجمهور طالما قلنا عنه إنه جمهور الضحك والإضحاك ، أو على الأكثر جمهور (الإمتاع والمؤانسة) إنما تخطو بهذا المسرح وهذا الجمهور معاً خطوة فسيحة إلى الأمام . وهى تقيم الدليل على أن فننا المسرحى لا يتخلو من الأصالة . وأن جمهور مسرحنا لا يعدم الحس الفنى الرفيع .

وكم هو رائع أن يجرى هذا كله ، فى هذه المرحلة بالذات من تطورنا المعركى . أعنى مرحلة الخروج من معركة التحرير دخولاً فى معركة التنوير ، فهناك على الضفة الأخرى من القناة تنتظرنا معركة جديدة هى معركة الحضارة ، وتحد جديد لا خيار لنا فى مواجهته ، فلما أن نكون أو لا نكون كما قالها « هاملت » !!

وليس أقدر من الفن على قبول التحدى والاستجابة له ، لأن الفن هو ضمير الأمة ، أو هو قلب النسر النابض ، إذا كان أحد جناحيه الخفاقين هو العلم ، والجناح الآخر هو الإيمان .

وتلك كانت فى الماضى ولا تزال فى الحاضر هى غاية الفن ، غايته كما يقول « شيكبير » على لسان أميره « هاملت » . أن يقيم المرأة أمام الطبيعة ، لكى تعكس للفضيلة صورتها ، وللرذيلة وجهها ، ولجسد العصر والمجتمع شكله وأثره . وبمحبه الفنى الخاد ، وينبض المسرحى الحى يستطيع « استوديو الفن » أن يلقى

بكلمته في هذه المسرحية ، أو من خلال تقديمه لهذه المسرحية ، يستطيع باختصار أن يقول نحن قادرون على «هاملت» ، قادرون على تمثله وتمثيله ، على تقديمه من خلال خبرتنا الفنية الأصيلة غير المستوردة ، قادرون على أن نتحدى به أنفسنا ، ونتحدى به كل محاولات التشكيك في فننا المسرحي ، وفي جمهور هذا المسرح . وهي في تقديرى كلمة واعية ومسئولة ، واعية بظروف المعركة الحضارية التي تنتظرنا على الأبواب ، ومسئولة عن دور الفن تجاه هذه الظروف ، لأن القضية في صميمها هي قضية تصحيح مسارنا الفني ، ورد اعتبارنا المسرحي ، قضية (أن نكون أولاً نكون) ، كما قال « هاملت » . وتلك هي المشكلة .

وأن يقدم هذا المسرح .. وهذا المسرح بالذات ، الذي كان يمكنه أن يستعذب السقوط في القمة ، قمة النجاح الجاهيري ، أن يقدم رائعة « سيكبير » « هاملت » ، (وهاملت) بالذات ، فتلك هي المعادلة الصعبة . لأن « هاملت » دون مسرحيات « سيكبير » كلها ، هي المسرحية التي ينبغي -- كما يقول المخرج الشهير « ستانيسلافسكي » -- أن يختتم بها كل ممثل حياته الفنية ، فهي أصعب المسرحيات في الفن المسرحي على الإطلاق .. وهذا صحيح ، فإذا كان النقاد قد أجمعوا على أن أعظم مسرحيات سيكبير السبع والثلاثين ، أربع مسرحيات هي : « هاملت » ، ماكبت ، الملك لير ، عطيل وكلها من التراجيديات ، فقد أجمعوا كذلك على أن أعظم هذه التراجيديات الأربع هي ... (هاملت) .

فما هي حكاية « هاملت » هذا ؟

حكاية بسيطة ، وبمقدار ما فيها من بساطة فيها من العمق ، فتى قتل عمه أباه وتزوج من أمه ، فانتقم الفتى لأبيه ، فما اللغز في ذلك ؟
لا شيء .. وكل شيء ..

الغز في شخصية « هاملت » نفسه ، ذلك الأمير المثقف الذى يخاطب الأشباح ، فلا ندرى إن كان يراها حقاً ، أم هى من وهم الخيال ، والذى يشحذ إرادته للقيام بما أملاه عليه ضميره ، ولكنه يعدل عن الفعل لأنفه الأسباب ، والذى تنقل عليه قيود الحكمة فيخلعها عن رأسه لينعم بطلاقة الجنون ، والذى يدعى الجنون فلا ندرى أين ينتهى الادعاء وأين يبدأ الجنون .

والذى يحب الحب ، ولكنه يشك في إخلاص المحبين ، فيحرق حبه « لأوفيليا » بحطب الشك اليابس ! (إذ ألحبت محنون صادق الجنون ، فأنت تعملين ما تشائين ، وهو لا يسىء الظنون) .

والذى يحب أمه حقاً ، ولكننا لا ندرى من سلوكاته وانفعالاته إن كان يحبها حباً سويّاً نبيلاً ، أم هو ذلك الحب الحقى الآثم الذى يصفونه (بعقدة أوديب) ، والذى يحب وطنه كما يحب أبناء وطنه ، ولكنه يخشى أن يرموه بالجنون ، فيقول على لسان (حفار القبور) : (إن أحداً في إنجلترا لن يفتن إلى جنونه . لأنهم هناك كلهم مجانين) .

فإذا أضفنا إلى ذلك . . شكله الخارجى . . فسوداويته ومظهره الشاحب ، وقوامه النحيل ، وردائه المخمل الأسود ، والريشة على قبعته ، وأناقته الرائعة . . وشاعريته في الحديث ، والشعور الدائم بالتفوق على الآخرين ، إلى جانب التسلى الدائم بإذلال الذات كل ذلك يحظى بإعجابنا ، وكل ذلك يشدنا إليه حقاً ، إنه لمن دواعى الفخر لكل إنسان كما يقول « الدكتور لويس عوض » ، أن تلقبه « بهاملت » .

إن كلمات « هاملت » الأخيرة رائعة ، فهو يهدأ ويأمر « هوراشيو » بالحياة ، ويعطى صوته لصالح « فورتبرايس » الحاكم الشاب الجديد ، ولكن « هاملت »

لا ينظر إلى الأمام ، فهو يقول « الباقي . . صمت » ، وبالفعل فإنه يصمت إلى الأبد ، ومع ذلك ففي كل منا « هاملت » بصورة أو بأخرى .

والذى يعطى « هاملت » بعد ذلك قيمة أكبر ، ليس علاقته بالقارئ أو بالمتفرج ، وإنما علاقته « شيكسبير » نفسه ، ففي شخصية « هاملت » دلالات كثيرة على « شيكسبير » بل لم يضع « شيكسبير » على لسان أحد من أبطاله ، كما يقول أكثر النقاد ومن بينهم أستاذنا « العقاد » ، بمقدار ما وضع من كلامه على لسان « هاملت » . . فشكوى « هاملت » هي في حقيقتها شكوى « شيكسبير » نفسه من متاعب الناس وآلام الحياة ، فالذى يشكو منه « هاملت » . . الأمير النبيل ، وولى عهد المملكة - أولى بأن يشكو منه « شيكسبير » . . الشاعر المقهور الذى قهرته ظروف العيش ، والممثل الحزين الذى عانى تقلبات الأيام :

اسمعه يقول فى مونولوج « الكينونة » الشهير ، (نكون أو لا نكون) تلك هي المشكلة ، فنحن لا ندرى أهو أنبل لنا وأكرم ، أن نتحمل الآلام من زمن قاس نصبر على بلاته وبلواه ، أم نهب بأنفسنا إلى الثورة على ذلك الخصم الموارب المتاعب والآلام ، فنستريح منها ؟ .

« وما الموت ؟ أهو نوم ولا زيادة ؟ »

« لأن كان الموت نوماً يربحنا من أوجاع الفؤاد الأليم ، ومن ألف جرح وجرح يُصاب به هذا الجسد ، هو إذن ختام تتمناه النفوس ، وتسعى إليه ! ولقد يكون الموت نوماً ، ويكون فى النوم حلماً يغشاه . . تلك هي المشكلة ، إذ من يدرى ما تلك الأحلام التى تطوف بالنائم فى ضجعة الموت ، بعد أن يخلع عن جسده رداء الحياة . . »

ونحن بمقدار ما نستطيع أن نصف « هاملت » بأنه « أمير الأمراء » . . نستطيع

كذلك أن نصف « شيكسبير » بأنه (شاعر الشعراء) ، فهو بحق شاعر الطبيعة .
وشاعر الحياة ، وشاعر الإنسان . فهو لم يكن مجرد شاعر ، أو لم يكن شاعراً كأى
شاعر ، بل كان عالماً بأسره ، تعددت فيه الجوانب والنواحي ، حتى إذا ما ذكرت
« شيكسبير » ، نسبت كل ما فى العالم غير ما ترك « شيكسبير » .

نسيت كل شيء . . . أجل . . . كل شيء . . . غير هذه التركة الخالدة من الشعر
المسرحى الرفيع ، الذى يسمو فوق كل مراتب الشعر ، والذى يزداد سموها كلما عدت
إليه مرة بعد أخرى ، لأنك ترى فيه دنيا بأكملها من البشر ، خلقها خيال اندمج
فيه كل خيال ، وفن تلاشى أمامه كل فن . . . إنه فن « شيكسبير » . . . مرآة الطبيعة
المجلوة ، وأشعر الشعراء ، بل شاعرهم على الإطلاق ، ومع هذا لم يكن
« شيكسبير » ملكاً ، ولا كان غازياً . ولا حتى عظيماً فى وطنه ، كان مؤلف
مسرحيات ، وكان مهرجاً ، كان عمله فى الحياة أن يبعث السرور والنشوة إلى نفس
الجمهور ، ثم لا يناله فى أكثر الأحيان غير السخط والازدراء ، ومات
« شيكسبير » . وانطوى دور المهرج ، ولكنه كان ككل نابغة ، وكان ككل
عبقري ، رجلاً صاحب رسالة ، تؤذيه رسالته حتى الاحتراق ، ولكن من دخان
هذا الاحتراق تنعطر الحياة ، ويزداد أريج الكون ، كلما ازدادت نار الحريق .

والعجيب أن هذا الرجل الذى كتب الأعاجيب ، لا نكاد نجد فى سيرته خبراً
عجيباً كما يقول « العقاد » ، إلا إذا كان العجيب فى سيرة حياته أنه ولد حين ولد ،
ومات حين مات .

فقد ولد فى الثالث والعشرين من أبريل عام ١٥٦٤ ، ومات فى الثالثة
والعشرين من ابريل عام ١٦١٦ ، وهو نفس اليوم الذى شهد مولده ، وكان له

من العمر اثنان وخمسون عاماً ، ودفن في مسقط رأسه ، في ذات القرية التي ولد فيها . . « ستراتفورد أون آفون » .

وكان قد أوصى قبيل وفاته أن تنقش على قبره هذه الأبيات :

قف يا صاحبي ، أستحلفك بالله

ألا تريح عني التراب

بارك الله في رجل يصون هذه الصخور

ولعنة الله على من يزحزح رفاقي .

هذا هو « شيكسبير » الذي كتب من المسرحيات ما لا تعدله روعة وبراعة معاً ، والذي طالما أشاد بالمرح وجمهور المسرح ، ولم يكن يخشى أحداً أقدر ما كان يخشى جمهور المسرح ، يحرص على إمتاعه وإسعاده ، ويكاد ينحني له ببطاقات الاعتذار ، وهذا هو الشاعر . . بل الشاعر العظيم ، اسمعه يقول لجمهور المسرح (آه . . ليت لي ملهمة من نار تقودكم ، إلى سماء تلمع يومضات الخيال ، حيث المثلون أمراء ، والمسرح مملكة ، والجمهور يتأمل هذا المشهد العظيم . ساحوا يا سادة عبقريتنا الكسول ، التي تجرؤ على أن تريكم هذا الشيء العظيم على هذه المنصة الفقيرة ، وهل يمكن أن تحتوى هذه الحلبة الضيقة على كل شيء . . كل شيء ؟) .

(هل يمكن أن تكس في هذه الدائرة الخشبية الخوذات التي أفرغت الماضي ، واقتحمت بوابة التاريخ ؟ أكملوا النقص بخيالكم ، ليصور الفرد الواقف على المسرح ألف فرد ، ولتروا فيه جيشاً بأكمله ، تخيلوا عندما نتحدث عن الخيل أنها هنا . . تدق الأرض بجوافرها في اعتزاز . عليكم أنتم أن تزينوا ملوكنا في خيالكم وأن تنقلوهم هنا وهناك . . متخطين مسافات عديدة ، ملخصين مآثر سنوات

مديدة . فى بضع ساعات . . دعوى أقدم لكم حساب تاريخنا ، وتفضلوا علينا أيها المتفرجون الصابرون بأذن صاغية ، وحكم رحيم . .) .

هذا هو التواضع ، أو هذا هو « شيكسبير » فى تواضعه ، وأمام من ؟ . . أمام الجمهور ، « وشيكسبير » هذا هو من قيل فيه ما قيل ، يكفى ما قاله الشاعر الإنجليزى الكبير « جون ملتون » عنه عندما فكرت بلاده فى أن تقيم له تمثالا ، ألم يقل بالحرف الواحد :

« ما حاجة « شيكسبير » إلى أحجار فوق أحجار ، بقيمها الناس على مدى قرن كامل تؤوى إليها رفاته الجيد ؟ ما حاجته أن تدفن بقاياها المقدسة تحت هرم يصعد حتى يصل إلى عنان السماء ؟ يا ابن الذكرى العزيز ، ووارث المجد العظيم . . ماذا يعينك من هذا الاعتراف الضئيل بفضل اسمك ، وقد أقت لنفسك من إعجابنا وعجبنا تمثالا لا يبلى ؟) .

ألم يقل كذلك الشاعر الفرنسى الكبير « فيكتور هوجو » فى نفس المناسبة ، وبالحرف الواحد :

(تمثال « لشيكسبير » . . ولماذا ؟)

« إن التمثال الذى أقامه لنفسه على عماد هو المجلتروا كلها لخبر له من كل تمثال ليس « شيكسبير » بحاجة إلى هرم وله مسرحياته . . وماذا يمكن أن يخلد الرخام منه ؟ ماذا يستطيع البرونز أن يقيم حيث يقيم المجد ؟ وأى قوم أتى من هذا القوم : (قصة الشتاء . . العاصمة . . زوجات وندسور المرحات . . بولوس لبصر . . وأى أثر أعظم من الملك لير . . وأشد نهجاً من تاجر البندقية . .

وأبهر من روميوجوليت ، وأبهى من ريكاردوس الثالث . وأى بدر يلقي على
هذا لبناء ضياء أعجب من ضياء « هاملت » . . . ذلك الأمير النبيل !! « .
تحية « لشيكسبير » . . . وأخرى « هاملت » . . . وأخيرة لهذا المسرح الذى يحاول
أن يقدم للجمهور . . . هذا الشاعر وهذه المسرحية ؟ .